الندم بين كامو وسارتر

بقلم عبد الفتاح الديدي

ـ ١ ـ

تقديم :

نريد في هذا البحث أن نشرح أوجه الفرق بين مفهوم الندم La Repentance عند الكاتبين الفرنسيين المعاصرين ألبير كامو Camus وجان بول سارتر Sartre

لقد مات كامو سنة ١٩٦٠ مخلفا وراءه جملة من القصص والمسرحيات والمقالات والابحاث والتعليقات . أما سارتر فلا يزال حيا في باريس يمارس أقصى آماد البحث والتحليل في أبواب النظر العملي والعقلي معا . وسنحاول ان نستقي مفهوميهما عن الندم من كتابين من أهم المؤلفات التي أخرجاها في المراحل الاولى من بزوغ الوجودية في عالم الغرب وهما : الغريب (١) وهي رواية كامو ، والذباب (٢) وهي مسرحية سارتر . ولكن سنعرج أيضا على غيرهما من الكتب المقاربة لهما في الزمن وفقا لمقتضيات الايضاح والتفسير . ولكننا لن نحاول الاشارة الى التطور الذي لمس هذين المفهومين في المراحل المتأخرة .

ولكن لماذا نحاول التعرض لفكرة الندم بالذات ؟ هذا أول سؤال قد يخطر على بال المرء حين نتعرض لموضوع الندم . ونستطيع بصفة خاصة أن نقول عن شباب هذا العصر انه اكتشف في نفسه شيئا جديدا لم يعرفه الانسان قبل السنوات الثلاثين الاخيرة . لقد اكتشف انسان هذا الجيل انه مسؤول وان مسؤوليته تحمله وزر الانسانية والكون بأكمله . لقد صار انسان اليوم عارفا لحقيقة نفسه بوضوح أكثر من ذي قبل . وهذه هي مشكلة الرجل المعاصر.. انه غير بريء .. ولا بد ان يصطنع الاشياء اصطناعا من أجل الوصول الى كنه موضوعاتها فيما بعد . انسان العصر الحاضر هو الذي يعاون في بناء الانسانية بأكملها ويشارك في مسؤوليات الحياة البشرية في كل مكان .

ولا شك أن العناية بهذا الموضوع قد تنم عن اهتمامات ميتافيزيقية. فهي تنبع أساسا من اعتبارات شديدة الاهمية بالنسبة الى الفكر الفلسفي والفكر الاخلاقي المعاصرين . ونحب أولا أن نؤيد عنايتنا هذه بانها ليست ناتجة عن رغبة في اشباع معرفي ميتافيزيقي . ويهمنا بوجه أخص ألا يتوهم القارىء أن تحليلنا لا يعدو ان يكون مجرد استجابة لمقتضيات التحليل النفساني أو التحليل المثالي . نحن نسوق ها هنا نظرة نابعة أساسا من أركان التحليلين الظاهري والوجودي . وهي نظرة جزئية لا تقبل الشمول الكلي بحال وان جاز صعودها الى مستوى العموم عن طريق التركيب . وهذا هو الفارق الهام بين هذه النظرة وغيرها من النظرات .

وسأجد صعوبة في تناول الموضوع رغم ذلك قبل أن أتقدم ببضعة تعريفات . وهي ليست تعريفات بالمعنى المفهوم . ولكنها تقديمات من شأنها أن ترفع الاحساس بالابهام من نفسية القارىء عند مواجهته لمثل هذه الموضوعات لاول مرة . تؤدي التعبيرات التي سأتناولها بالشرح الاولي مهمة التقريب للافكار الفلسفية والاخلاقية التي تدور حول موضوع الندم . وقد اعتدنا خلال الفكر الوجودي أن نستخدم مبادىء يعتبرها البعض عناصر أدبية بحتة . بينما نعدها عادة نماذج حقيقية في مجال الفلسفة .

ولا بد ان نعترف بالصعوبة القائمة بالفعل أمامنا كما تقول سيمون دي بوفوار (ص ١٠٥ من كتاب الوجودية وحكمة الامم) . ذلك ان كلمة رواية ميتافيزيقية وعبارة « مسرح الافكار » Théâtre des Idées تثيران القلق لدى بعض الناس . ويزعم اعداء الادب الفلسفي ـ ولهم بعض الحق فيما يزعمون ـ انه اذا كان من الممكن تحويل دلالة الرواية او المسرحية الى تصورات مجردة .. فليس هناك أي جدوى من كتابة الرواية أو المسرحية . لا يجب اذن أن نقبل دلالات الرواية او المسرحية ترجمتها على شكل تصورات مجردة . والا فما هي جدوى بناء الحكاية في مدار أفكار يمكن التعبير عنها في وفرة اكبر ووضوح اكثر عن طريق الاسلوب المباشر ؟

غير ان الرواية الصحيحة لا تسمح اطلاقا باستخلاص معانيها في بعض العبارات والصيغ ولا تتيح لنا فرصة حكايتها كما تقول سيمون دي بوفوار (نفس المرجع ، ص ١٠٧) . بل لا يمكننا ان نقتطع معناها اكثر من قدرتنا على اقتطاع ابتسامة من الوجه الباسم . اذ تقدم الرواية الميتافيزيقية Le Roman Métaphysique ـ اذا كانت مكتوبة بأمانة واذا خضعت لقراءة أمينة ـ وسيلة هامة لاستطلاع الوجود على نحو لا تؤديه وسيلة تعبيرية اخرى . فالمسألة اذن مسألة لباقة وفن وكياسة . ولا تلبس الرواية قيمتها وكرامتها الا اذا كانت اكتشافا حيا بالنسبة الى الكاتب والقارىء سواء بسواء .

الندم ومعناه :

وقد ألف كامو رواية الغريب L'Etranger سنة ١٩٤٢ وأتبعها سارتر بمسرحية الذباب Les Mouches سنة ١٩٤٣ . فأصبح أمام أعيننا فجأة نموذج روائي ونموذج مسرحي لهذا النوع من الادب الذي لم يتفق أحد على ان يأتي على هذا النحو. وأمكن النقاد رغم ذلك أن يجمعوا فيما بعد على صفاته وملامحه الفنية الخالصة . بقي ان نحدد من ثم معنى الندم ووضعيته بالنسبة الى الفكر الوجودي بأكمله . فالندم Repentir يتدخل بصورة أو بأخرى في أفرع الفكر الفلسفي الوجودي . ولكن لو شئنا النظر في معاني هذه الكلمة كمصطلح فلسفي لوجدنا صعوبة كبيرة .

اذ لم يورد لالاند في قاموسه الفلسفي كلمة الندم وانما أورد كلمة تأنيب الضمير Remords بناء على طلب بعض الاساتذة الذين ألحوا في ادخال هذه الكلمة ضمن المصطلح الفلسفي . André Lalande : Dic. de la Philos (ص ٨٩٩ في السطر الاخير) هذا مع العلم بأن كلمة الندم Die Rene كانت منذ زمن طويل

(١) ترجمتها الى العربية عايدة مطرجي ادريس ، ونشرت في مجموعة « قصص كامو » .

(٢) ترجمها الى العربية الدكتور سهيل ادريس ، ونشرت في مجموعة « مسرحيات سارتر » .

شائعة بنصها وحرفها في المصطلح الفلسفي الالماني . (انظر قواميس Metzke ميتسكه و Brugger بروجر) وهي واردة على الخصوص بوضوح وتفصيل في الجزء الثاني من قاموس التصورات الفلسفية (ص ٧٢٥) Worterbuen der Philos. Begriffe الذي ألفه الدكتور ايزلر : Dr. Rudolf Eisler (برلين سنة ١٩٢٧ في ثلاثة أجزاء) . ونشره بمؤازرة جمعية « كانت » الفلسفية . أما قاموس ريونز Runes فقد أورد كلمة التكفير Atonement فقط وأسبغ عليها كل ملامحها الدينية البحتة . (ص ٢٧ (Dagobert Runes : Dic. of Philosophy - London)

وكان كيركجورد الفيلسوف الوجودي قد ناطح فكرة الندم طويلا. وقال كيركجورد ان الندم الذي يصحب الخطيئة هو أرفع تعبير عن النقد الاخلاقي . ووجد من ثم في الندم الشرط الاوحد الذي يسمح للفرد بالاختيار المطلق . فماذا يكون الندم سوى تأكيد الذات كشخص مسؤول عن افعاله ونفي للذات كشخص مخطىء في آن واحد . وهكذا فانني لا اصبح شخصا ولا أحصل على شعوري بشخصيتي ولا أقويه الا بأن أنفي ذاتي . ذلك انني أختار بنفسي اختيارا مطلقا عندما أختار نفسي كصاحب خطيئة فقط . ومن شأن التجريد أن يدفع الموجود الى اللامبالاة ، أما الخطيئة فهي التعبير عن أقوى تأكيد ذاتي شخصي في الوجود . (الكتابات المتأخرة Post-scriptum ص ٣٥٧) .

ويمكن ان تكون الاخلاق خطرة اذا ظلت كما هي في مثاليتها وتجريدها . ولا شيء يقتل في الاخلاق المثالية والتجريد مثل الخطيئة لانها موجودة وفردية وماثلة بالفعل . وفضلا عن ذلك تدفع الخطيئة بالشخص بعيدا عن مجال التعميم . (انظر الخوف والارتعاد ص ١٦٢ ، ١٧٩ (Crainte et tremblement

ولكن رغم كل الصعوبات التي تحيط بالكلمة (الندم) فقد أشار لا لاند في شرحه لكلمة تأنيب الضمير اليها عرضا في مجال المقارنة بين كل من اللفظتين . لقد حاول لا لاند شرح تأنيب الضمير فقال ان الندم يختلف عن تأنيب الضمير في انه أقل سلبية وفي انه يحمل مسحة دينية . ويحدد الندم ـ وهذا هو المهم ـ حالة روحية ذات ارادة اكبر . ولذلك يشير لا لاند الى تفرقة بول جانيه العالم النفسي (ص ٦٥٦ من كتابه بحث في الفلسفة) بين معنى الندم وبين معنى تأنيب الضمير على أساس ان الندم يعد فضيلة بينما يعد تأنيب الضمير عقابا . ولهذا ليس لتأنيب الضمير أي طابع اخلاقي أو أية قيمة أخلاقية في ذاته . ولكن من الممكن ان يؤدي تأنيب الضمير الى الندم الذي يملك تلك القيمة الاخلاقية .

فأهم ما يمكن ان يوصف به الندم هو انه ذو قدر من الايجابية أولا وانه ذو قيمة اخلاقية ثانيا . فهاتان الصفتان لهما أهميتهما البالغة بالنسبة الى الاخلاق الوجودية لانها اخلاق تقوم أساسا على الحرية . (ص ١٠٥ ، الوجودية نزعة انسانية ، تأليف جان بول سارتر) . وبطبيعة الحال نحن نسقط عن عمد صفة المسحة الدينية التي تكلم عنها جانيه في وصفه للندم . غير أن الوجودية تدفعنا مع ذلك الى الاهتمام بهذه المسحة بالذات من بين صفات الندم لان الوجودية تود أن تبني طائفية جديدة . وهذه الطائفية الجديدة لا تقوم على أساس جامعة العقيدة الدينية وانما على أساس جامعة الحب البشري . ولذلك تعمد الوجودية الى استخدام الندم كطريق الى السلوك الاخلاقي لا بوصفه عاطفة دينية مشبوبة ولكن بوصفه سبيلا الى الترابط الطائفي على المستوى الجماعي . واذا كان الغثيان هو التجربة التي تدخل بنا الى نطاق الميتافيزيقيا فان الندم هو التجربة التي نمر خلالها الى ميدان الاخلاق . هذا فيما يتعلق بسارتر خاصة ، أما فيما يتعلق بكامو فالتمرد هو أول عقبة يقام عليها بناء الاخلاق والميتافيزيقا معا . (ص ١٠٤ ، من كتاب بيير هنري سيمون عن الانسان في الركب) .

الشعور والندم :

لا شك في اننا نواجه في مجموع مشاكل الفكر الوجودي طرفا جديدا من التناول الفلسفي . وهذا قد يدفعنا الى الاحساس ببعض الغرابة . اذ كيف يتيسر لنا ان نقيم بناء اخلاقيا من القيم على مثل هذه الاحاسيس الوجدانية ؟ ونحن لم نعتد في وافعنا الفلسفي أن نفكر في المسائل على هذا النحو . بل اننا قد نخشى من ناحية أن تطغى علينا التفاسير المادية ولكننا لا نقل اساءة ظن بالعاطفيات منا بالماديات. وسارتر يجيب على ذلك اجابة واضحة في كتابه عن الوجودية نزعة انسانية فيقول (ص ٨٩) : « لا بد أن يخترع القيم شخص ما . لا بد من ان نعترف بالاشياء على نحو ما هي عليه . وفضلا عن ذلك لا يعني قولنا اننا نخترع القيم شيئا اخر سوى هذا : ليس للحياة معنى . هذا حكم قبلي . ليست الحياة آي شيء قبل أن نعيشها ولكن علينا نحن أن نعطيها المعنى . وليست القيمة شيئا سوى هذا المعنى الذي نختاره . ويمكن أن نلمس عن هذا الطريق امكانية خلق طائفة انسانية » .

وقد شرح سارتر معنى هذه الانسانية الجديدة شرحا وافيا . ولم يعد التفكير في بناء الوجود الانساني وبناء الفكر الفلسفي وبناء السلوك الاخلاقي ابتداء من الشعور الذاتي للفرد شيئا مخيفا على نحو ما كان الامر منذ اربعين سنة . لقد استطاع الفكر المستند الى حقائق الشعور الذاتي أن يقيم نفسه على أرض صلبة . ولم تبخس حقائق الشعور الذاتي من علمية الحقائق التي تقوم عليها فلسفات الوجود لسبب بسيط هو انها حقائق جزئية . ويشير جيلبرت رايل في كتابه عن « تصوير العقل » (ص ١٥٠) الى أن الشعور الذاتي يستخدم أحيانا بمعنى أكثر تعميما للدلالة على ان بعض الناس قد بلغ مرحلة الاعتناء بخصائص طبعه او ذهنه مستقلة عن تقدير الناس . واذا بدأ الصبي يتبين انه اكثر شغفا بالرياضيات أو أقل احساسا بالوحشة نحو البيت من كل أترابه فمعنى ذلك انه صار اكثر شعورا ذاتيا بنفسه . والشعور الذاتي بهذا المعنى كما يقول جيلبرت رايل ذو أهمية أولية بالنسبة الى السلوك في الحياة . ولهذا كان تصوره اذن أشد أهمية في ميدان الاخلاق . كذلك يشير نوويل سميث في نهاية كتابه عن الاخلاق الى انه يجب اجابة السؤالين : ماذا أصنع ؟ وأي مبادىء الاخلاق أتبع ؟ لدى كل منا أمام نفسه على حدة . ويعد هذا على الاقل جزءا من دلالة كلمة « الاخلاق » .

وليس لي هنا أن أرجع بالقارىء الى قضايا عديدة في موقف الوجودية حيال المذاهب العقلية البحتة . فهذا يتطلب شرح الوجودية بأكملها . لكن يكفيني ان اشير عابرا الى ان العواطف ذات وضوح مخصوص وذات حقيقة نوعية في الوجودية رغم انها لا تتكون من اشياء موضوعية ورغم انها لا تستضيء الا من نفسها . ويمكن ان يدرك احساسنا بالواقع نموا مستقلا مع ابداء الثنائية الداخلية في شعورنا . وبهذا المعنى صار الاتجاه السائد اليوم وخاصة في علوم النفس ينحو نحو فصل الشعور الذهني المتنبه القاصد المكتشف للشيء المتميز منه عن الشعور العاطفي الذي يظل في المستوى الوجداني الملتزم . ولما كان رد العاطفي الى الذهني شبه مستحيل يظل الشعور العاطفي غير متصف بالعوز أو الخلط ويحتفظ بايجابية معينة ويستند الى نوع من الارادة الوجدانية . ويتبدى هذا الشعور العاطفي في الخوف من المستقبل وفي التعلق بما كنا عليه وفي الاشفاق من الموت وفي رفض المحنة ورفض الزمان . فليس الشعور العاطفي اذن مجرد شعور محدود ذا ترتيب ولكنه شعور مرتبط بالأنا ارتباطا ارادياً ويرفض باسم هذا الأنا الخضوع لتعاليم الاشياء ومعايير الحقيقة . ويبدو هذا الشعور ايضا بالنسبة الى البعض لا كأنه شعور مختلط ولكن كأنه شعور مذنب . وليس من شك في ان الشعور لا يمكن ان يكون عاطفيا مائة في المائة او ذهنيا مائة في المائة. ولكن لا يمكن تحويل احد الشعورين الى الاخر او رد الاخر اليه . ومن

هنا ينشأ الاحساس بالعبث . (أنظر الصفحات ٩٤ ـ ٩٨ من كتاب فردينان ألكييه عن وحشة الوجود ـ المطابع الجامعية في باريس ١٩٥٠) .

فالوجودية والفكر الحديث عموما يستندان الى أحد شطري الشعور الانساني . وهو شعور عاطفي لا يمكن أن يقوم بدونه نافع أو ضار ولا انسجام او تمام ولا يمكن ان تصل أي حركة نحو غاية أو هدف على معنى بدونه كما يشير الى ذلك ألكييه . وهذا صحيح فيما يظهر من جملة احتياجات الشعور الذهني المتكررة المستمرة الى الشعور العقلي . ولذلك كان استناد الفكر المعاصر الى العاطفيات رغم كل ما يقال عنها ذا أرضية صلبة .

الشعور والنقاء :

وهذا النوع من الشروع في التفكير الاخلاقي ليس وضعيا كما لا يحتاج الامر الى بيان . ولكنه رغم ذلك تجريبي ويعتمد على تجربة حقيقية يباشرها الشعور . ولذلك كانت صفة الايجابية أساسية داخل نطاق الاحساس بالندم . ولذلك ايضا كانت صفة التجريبية من أهم المسائل المتعلقة بالاحساس بالندم . فالندم ليس فكرة دينية وانما هو تجربة يباشرها المرء منذ طفولته ويكون من اثرها احساس واضح بالذنب يؤدي فيما بعد الى توجيه السلوك الاخلاقي .

فالاخلاق الوجودية لا تبدأ من جملة قواعد او جملة أحكام . انها لا تفرض مبادىء ومناهج ومقاييس ومعايير . كل ما تبدأ من عنده هو التجربة . وكما يفطن الطفل مرة بعد مرة الى ان النار تحرق وان الثعبان يلدغ يفطن ايضا الى الندم عقب كل سلوك والى احساس يبلغ مستوى الذنب . ويدرك الانسان شيئا فشيئا ان الحرية هي نفسها الوعي الذي يلازم وجوده . فهي الطابع الذي يصبغ كل شعور انساني بأي شيء . وهي هي الذنب . والحرية كما عناها سارتر في الوجود والعدم هي قوة العقل الخيالية والفكرية وهي حافز هذه القوة وسلبيتها معا في نفي المعطي . بل هي قدرتها على البزوغ وسط أحوال سفلى ونزوعها للعودة الى الشعور بنفسها . وهنا تفقد أسوار السجون معنى الغاء الحرية . فنحن أحرار طالما كان فينا وعي وشعور . ولكن لا تظهر القيم الا مع ظهور ما يسميه سارتر بالمشروع . والقيمة في نظره هي التمام الذي يراود الشعور الحر والذي تنزع نحوه عبثا . ويأخذ هذا النزوع بطبيعة الحال شكل المشروع الانساني الخاص .

وفعل التحرر هو بدء المعرفة وعلى عتبة هذا الفعل يقوم الاختيار . وكما يقول كير كجورد (في كتابه « اما ... او » ص ٤٧٤): « لا يتعلق الامر بأن يختار المرء بين ارادة الخير او ارادة الشر بل باختيار الارادة نفسها » . وهذا في الواقع هو الخطوة الاولى التي تنتقل بها الارادة الى مستوى الاخلاق . وعندما تختار الارادة يمكنها ان تختار الشر ايضا . ولكنها تصبح بذلك على أي حال امام امكانية اختيار الخير . فالانسان يبلغ سبيل الوجود الميتافيزيقي عن طريق الاحساس بالغثيان كما يبلغ سبيل السلوك الاخلاقي ابتداء من الحرية. ويزيد الانسان من معرفته لنفسه بزيادة خصوبته . وهناك الندم الحقيقي الذي يمثل التعاكس ولا يتوقف عند حد الانين . والشعور هو الذي يثبت استخدام الحرية . وبهذا يصبح الانسان ما هو عليه .

ومن المؤكد أن الحياة لا تقبل التمام . وهي مشروع متداول على الدوام . وفي أنفسنا نوع من عدم الارتواء المستمر يدفعنا دوما الى الحركة من اجل الذهاب الى أبعد مما نحن فيه . وهذا المشروع هو علامة الاقتضاء الفلسفي . انه يترجم عن حاجة الى التمام متأصلة في بناء الحقيقة الانسانية . ولا يكتشف سارتر ها هنا بفضل المصادرة الاولية في ظهور القيمة الا العبث المحض لان الموت بالنسبة اليه هو القضاء الجذري الحاسم على كل مشروع وانهيار كل توقع أو انتظار . ولكن هذا نفسه بالضبط هو موضع التساؤل . لان الموت بوصفه نهاية مطلقة لا يعدو ان يكون فكرة فارغة من المضمون لا تلتقي بها أطلاقا أية تجربة من التجارب التي يزودنا بها القلق من الموت .

فهل معنى ذلك اننا نواجه المستحيل ؟ وهل معناه اننا نبلغ أعتاب اليأس من أول الطريق ؟.. لا .. فليس هناك وعي لم يحزمه اختياري . واللامبالاة اسطورة لان مجرد محاولة التهرب أو الافلات من الوضع هي نفسها أيضا اجراء ارادي . وليس هناك ما يدفع الى التحديد في أحد المواقف ولكن الموقف نفسه يدعو الى التحديد حيث تؤكد حريتي أو عبوديتي . وتصير الحرية عندئذ مشكلة تطهير . ليس لي الا ان أعيش في استباق وفي هروب متطلعا نحو المستقبل . وتكمن الحطيئة الكبرى والوحيدة ايضا في ايقافي وفي ثني عزيمتي وتقليم أظافري .

وتظهر الحياة الانسانية خاصة في نظر سارتر بوصفها فرحة الحرية . أول خطوة هي نداء الوجودية الثوري الى كل انسان كي يشارك في الشعور الكامل بالتبعة وحمل المسؤولية عن وجوده . وحينما يأخذ بذلك على عاتقه يصير سيدا ومالكا للعالم بأكمله . فها نحن مسؤولون عن أقل عاطفة وأصغر فكرة وعن أكثر أفعالنا ضآلة . وسأجد نفسي اذا أردت خلال مشاربي وأذواقي البريئة . وسأرتكب الخطايا من جديد لاني انا نفسي المؤلف الاوحد لكل افعالي . ولا عجب في ان تظهر مثل هذه المسؤولية لونا من القلق داخل قلبي . وليس هناك فعل واحد مبتذل .. انني أضع نفسي بأكملها في كل فعل . وهذه في رأي سارتر هي ميزة النوع بأكمله .

الذباب والغريب :

ظهرت قصة الغريب كما قلنا في سنة ١٩٤٢ ، أي قبل ظهور مسرحية الذباب لسارتر بسنة كاملة . وهذا معناه ان المؤلفين من نتاج فترة واحدة وصدى لمعالم فكرية واحدة . وكانت هذه الفترة بمثابة فاصل قوي بين مرحلتين أدبيتين مختلفتين في تاريخ الفكر . ولا شك في انه قد سبقت الاشارة لدى الكتاب والادباء الى الافكار التي استند اليها الفكر الوجودي في هذه الفترة . كان كافكا قد عبر قبل ذلك عن الاحساس بالعبث . وكان الاحساس التراجيدي بالحياة مألوفا لدى كل من نيتشه وباريس واونامونو ، وكان معنى الحياة في عالم بلا قوانين معروفا في روايات برنانوس وجوليان غرين وغراهام غرين . وكانت المغامرة الاخلاقية القائمة على غير استناد الى قيم سابقة معروفة في روايات مالروه ومورياك . واستطاعت التعبيرية الالمانية ان تؤثر بما فيها من عنف حاد قبل هذه الفترة ايضا بخمس عشرة سنة ايضا . ويرجع الى فوق الواقعية الفرنسية والى جان كوكتو وجويس الفضل في ابداء التشكك فيما يجري في العالم من نظام .

ولكن سنة ١٩٤٢ هي سنة التحديد الحقيقي لصورة العالم العابث كما يقول ألبيريس . ولن يجد كل هذا التيار اسمه المناسب وطابعه الواضح الا على قلم ألبير كامو على نحو ما عبر عنه في اسطورة زيزيف بقوله (ص ١٨) : « هذا الطلاق بين الانسان وبين الحياة ـ بين الممثل وبين الديكور الخاص به هو بخاصة الاحساس بالعبثية » : وأدت هذه الحساسية الاجتماعية والادبية الى ان صار المثقف الغربي قادرا على استشعار علاقته بالعالم . وخيم على الادب بعد سنة ١٩٤٢ شعور بارد ثقيل واستلهم هذا الشعور فيالانيه في مقاله بمجلة العصور الحديثة (العدد ٦٢ ص ٢٠٤٩) عن : مواليد سنة ١٩٢٥ الذي قال فيه : « اننا نحس بأننا غرباء بالنسبة الى هذه الازمة الرومانتيكية التي تستكمل نفسها تحت ابصارنا في الرتابة » .

وأحب أن اشير هنا الى ان قصة الغريب تتميز بما تتميز به دائما كتبه وأقاصيصه في اعتمادها على الاحتدام المعنوي الذي تخلفه المناسبات . ليست أهمية قصة الغريب في انها ذخيرة من الحكم والعبارات المتشائمة كما يقول بحق جان بول سارتر (ص ١٠٢ من

تعليقه على قصة الغريب ، جزء أول من كتاب المواقف) . تكمن أصالة ألبير كامو في نظر نفسه في الذهاب الى أقصى آماد أفكاره . واعتمادا على هذه الملاحظة وعلى غيرها من الملاحظات الخاصة بالصمت والكلام في غضون مقاله كان أولى بسارتر أن يبلغ أقصى الامد في تحليل الموقف الرئيسي في حياة ميرسوه بطل الرواية . ولكن شغل سارتر عن ذلك أمران : أولهما أن تصوره لاهمية العبارات والكلمات في الاداء والايضاح يلعب دورا رئيسيا في شرح المعنويات مستقلا عن الاحتدام المعنوي المترتب على الاقناع الشاعري في المناسبة كما هو الحال في مؤلفات كامو . وسنرى ذلك عمليا في الفوارق الملموسة بين الشكل البنائي في مسرحية الذباب وبين الشكل الحكاء داخل اطار رواية الغريب . ورغم الفارق الاصلي بين المسرحية والرواية في الشكل الادبي فان المعالجة المعنوية لموضوع الندم مختلفة لدى كل منهما . وثانيهما ان الندم الانساني ذو مصدرين مختلفين على قلمي كامو وسارتر . فعند سارتر ندم أصلي تعبر عنه مسرحية الذباب ولكن ليس هذا الندم عشويا بالمعنى الذي خصه به كامو . فالندم له قانون عند سارتر كما جاء على لسان كليتمنيستر (ص ٣٧ من مسرحيات سارتر) حين قالت لابنتها ألكترا : « وستعرفين في النهاية انك ألزمت حياتك بضربة واحدة من الظهر .. مرة واحدة وألى الابد .. وانك لم يعد امامك الا أن تأخذي في حرق جريمتك حتى تبلغي الموت . ذلك هو القانون العادل أو غير العادل للندم » . أما عند كامو فالندم ظاهر الاصل من قوله في مسرحية كاليغولا (ص ١٢٢) : « يبكي الناس لان الاشياء ليست كما كان ينبغي لها أن تكون » .

ولا شك في ان الخطوة الاولى في قصة الغريب تستلزم منا ان ندرك الجرأة التي يعالج بها الموضوع . هنا يضع كامو بناء روائيا يحتم أن تكون احداث الرواية كما كانت في مراحلها . ومرحلة الصمت الطويلة قد أفصحت عن جملة المشاعر التي تنبثق في نفس انسان لا يتعامل على نفس المستوى الذي يتعامل عليه البافون من الناس . ولا يجد أي جدوى حتى في الكلام . ولكنه لا يقبل الانخراط في الواقع كي يشارك في هداية الاخرين الا عندما يلقى القسيس في الليلة السابقة على اعدامه . في هذه اللحظة يهب للكلام كي يبلغ الناس حقيقة خطيرة . انه يريد بذلك أن يكون مسؤولا عن مستقبل البشر وان يشارك في بناء الانسانية . اليأس المطلق هو وحده سبيل الفعل والالتزام . لا بد أن يدرك أقصى آماد الواقع اللعين كي تبزغ في نفوسنا أول دفعة نحو العمل ونحو الوجود الانساني . وحينما وصل ميرسوه الى اليأس المطلق عرف الامل المطلق في حب الاخر والناس والحياة وهمه ان يكون البشر مدركين لحقائق معاشهم وقال لاول مرة ما يعتقد انه الحق . ان الانسان لا ينطق بالحق الا حينما يستقر في أعماق قلبه ايمان بالعبث المطلق . أول طريق السلوك الشريف هو اليأس القاطع من أي بارقة أمل . ولهذا تعبر الغريب عن موقف يتحدد فيه الوضع الميتافيزيقي والاخلاقي لرفض العالم الانساني رفضا عنيفا. ان الفشل يستحيل من جراء ذلك كله الى اكتشاف ميتافيزيقي وتنبني عليه معالم السلوك الانساني .

وسيتبين فيما بعد ان هذا التفسير اقرب الى طبيعة كامو الفكرية . لانه سيقول فيما بعد ان اليأس ضرب من الزهد . وسيقول أيضا ان وظيفة الانسان هي معرفة المنفى المفروض عليه وان يقاوم . وهذه المقاومة ضرب من الفعل . انها تجعلك ملتزما كأي فعل وكأي اختيار . وهي تحمل في ذاتها كل مقدراتها . ترتكن أخلاق كامو بمعنى أوضح على معنى الحقيقة لدى الانسان . ولهذا سيظل كامو أنبل من حمل القلم من كتاب هذا العصر .

وسارتر يتبع هذا المفهوم في مسرحية الذباب . فأورست بطل الذباب يحدثنا عن اليأس او عن يأسه هو خاصة . ومما لا شك فيه ان هذا ناجم أولا وقبل كل شيء عن القطام العنيف وعن الانتزاع الوقتي من الطبيعة ومن الوجود ومن الخير . ان كلامه عن اليأس هو اثر من آثار انفصاله عن شبابه وانقطاعه عن مباهج أحلامه . وقال لاخته انه يحس بالفراغ في كل شيء . دعيني أقول وداعا لشبابي . وهو يحس أيضا كأنما انصهرت عليه الحرية ونقلته وكأنما قفزت الطبيعة الى الوراء . فاذا به حقا وحيد . لقد كان المصير الذي يحمله على كتفيه ثقيلا بالنسبة الى شبابه ولذلك حطم شبابه .

وينجم اليأس من هذا المنفي خارج الشمول الكلي . اذ لا يمكن ان تستكمل حريته نفسها الا بأن يباشرها فعلا . بل لا خلاص من استخدامها . فالحياة الانسانية هي التي تخلق معاني الاشياء بطبيعة المجهول المتصل . واذا شعر الناس بالتعب من جراء هذه الحيوية الدائمة ، واذا انثنت عزيمة الانسان في الوضوح وتعطلت عن اتخاذ القرارات فقد كل شيء معناه وتراءت للانسان سوءات وجوده البأهت الذي أعطي اليهم للاشياء (ص ١٠٢ ، الذباب) . ويقول جوبيتر لاورست في مسرحية الذباب ان الانسان ليس شيئا في العالم ولكنه شعور منفي في نفسه (ص ٩٨ ، الذباب) . وهذا الشعور فقط أو هذا الدخيل المنفي هو الكينونة الوحيدة التي تظهر بها الدلالات في العالم .

وعن هذا الطريق يجد الشعور ذاته الحقيقية ... انه يجد ذاته بواسطة مشروعاته وبالمعنى الذي تعطيه اياه وبالتحولات التي تفرضها عليه خلال غزواته في هذا العالم الذي يحكم عليه بأن يكون واحدا من الاخرين . ويفرض مجرد الوصف للشعور الذي يقرر جمود الاشياء وغباوتها وعشويتها مع قدرته دائما على انارتها وحتمية ادائه لذلك ... مجرد ذلك من شأنه أن يفرض الاخلاق .

واذا كانت قصة الغريب قد أظهرت بظهورها سنة ١٩٤٢ كانبا عملاقا هو مؤلفها ألبير كامو ، فان مسرحية الذباب قد سجلت سنة ١٩٤٣ التغيير العميق الذي خلقته الحرب والاسر والمقاومة في تفكير جان بول سارتر . وفي كلا العملين الهامين في تاريخ الانسانية يتبين انه اذا لم يكن هناك ما يفرض على الانسان يظل الانسان بلا انتماء وتبقى حريته فارغة جوفاء ، ويتساءل في النهاية ما اذا كان يعيش حقا . لا بد من الاختلاط بالناس وحمل أعبائهم ومشاركتهم في الذنوب والخطايا كي يصبح عملي وعمل الاخرين متلاحما . وعندئذ فقط تبزغ الحرية ، لان الحرية لا وجود لها في العراء وخاصة في بيداء الوجود المقفر . حريتي هي قدرتي على مغالبة الذنوب التي يفرضها علي موت الاخرين وهي مشروعي الذي أتحقق فيه من حقيقة وجودي وهي أصل المسؤولية التي أبني على ضوئها مستقبل البشر .. البشر جميعا كطائفة تسعى من أجل الحياة فوق الارض بعبئها ومحدوديتها .

القاهرة (يتبع) **عبد الفتاح الديدي**

طبعت على مطابع

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون ٢٢٢٩٢١